تفسير التاريخ.. والبناء
وسورة الفيل

«١»

إن اتساق حوافز البناء، ومنطلقات الحركة في المجتمع، مع الحقائق التي يكشف عنها تفسير التاريخ، وتعليل وقائعه وأحداثه؛ يجعل من الضرورة بمكان أن تكون النظرة إلى تلك الوقائع والأحداث، وما قد تجرُّ من ذيول، وتخلِّف من آثار؛ متوائمة مع القاعدة الفكرية العريضة التي تقوم عليها الصياغة المتميزة للفرد، والأطر التي يتحرك ضمن حدودها المجتمع عند البناء.

من أجل هذا: نجد أن تفسير التاريخ الإسلامي، لا بد أن يكون تفسيراً ذاتياً، ينبثق ـ مع مراعاة الظروف والملابسات ـ: من عطاء الرسالة الإسلامية نفسها!

فمن وجهة النظر الإسلامية ـ المرتبطة بالنصوص أولاً وقبل كل شيء دون إغفال للواقع والاجتهاد عند الحاجة ـ: يفسَّر التاريخ وتعلَّل وقائعه وارتباط النتائج بالمقدمات، وعلاقة الجزئيات بالكليات فيه: من خلال العقيدة الصحيحة والمفهومات التي تقوم عليها، وتتصل بدلالتها وأبعادها، وقوة تأثيرها في حياة الفرد والجماعة والأمة في ضوء سنن اللَّه في الكون والخليقة، وهي سنن تسير بمشيئة اللَّه تعالى وقدرته وحكمته البالغة، سيراً سببياً غاية في الدقة والانتظام، يرتب المسببات على الأسباب دونما اعتباط أو تخلخل، ولا يعتريها تحويل أو تبديل.

وهذا لا يعني إهمال العوامل الاقتصادية والجغرافية والاجتماعية والسياسية، ولكنها لا تأتي في المقام الأول عند التفسير؛ لما أنها ليست البواعث الجوهرية في صنع تاريخنا، ولا المنطلقات التي تلد حتمية الانصباغ بها كما يحلو افتراض ذلك للآخرين!!

ولعلنا لا نبعد النجعة ـ رغبة في تقديم واحد من النماذج الكثيرة لما نقول ـ إذا نحن عرضنا ـ ولو بإيجاز شديد ـ لقصة أبرهة وجيشه وما كان من عزمه أخزاه اللّه على هدم الكعبة المشرفة، ثم ما باء به من الخسران والهلاك، والقصة التي أشرنا إليها إشارة سريعة تناسب ما كنا بسبيله من الكشف عن بعض من عطاء سورة (الفيل) في معرض العناية التي أولاها القرآن الكريم لاستخدام الواقع وتفسيره على طريق الهداية العظيم. والسورة هي قوله تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾[الفيل: ١].

وبين يدي ذلك، لا بد أن نلحظ كيف أن اللّه تعالى بدأ السورة بهذا الاستفهام التعجبي، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ والخطاب للنبي ﷺ أو لكل من هو أهل للخطاب ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾؟! فهو ـ سبحانه ـ الذي صنع ـ بقدرته وحكمته البالغة وغيرته على بيته الحرام ـ بأصحاب الفيل ما صنع، حيث جعل كيدهم فيما بيتوا ـ ويا لسوء ما بيتوا أو مكروا ـ من إزالة هذا البيت من الوجود، وبدّل غايتهم الهابطة المرجوَّة من قبلهم خسارة وهلاكاً.

وقد نسب ـ جل شأنه ـ إلى نفسه أنه أرسل عليهم طيراً أبابيل ـ جماعات ـ ترميهم بحجارة من سجيل ـ الطين المطبوخ وهو المدر ـ وجعلهم بهذا السلاح من الطين الذي أرسله عليهم بواسطة صنف ضعيف من خلقه ـ هو الطير ـ إذا قيس بما أعدَّه الطاغية أبرهة، وما ربى عليه فيله المرعب المخيف الذي أريد له أن يتقدم العدد الهائل من الفيلة وراءه..

أجل هو الذي جعل أبرهة وجيشه كعصف مأكول: كورق زرع يبس وأكلته الدوابُّ وداسته وأفنته، وبهذا كان هلاكهم الذي كان واقعاً يقينياً سيظل ـ على مدى التاريخ ـ عنوان أخذ اللّه للظالم غيرَة على بيته الحرام والعقيدة التي يعنيها وجود هذا البيت.

وعلى هذا: فكل تفسير لما حصل لأبرهة وجيشه بغير ما نصَّت عليه هذه الآيات الكريمات في هذه السورة: عدوان على الحقيقة، وتزييف للواقعة التاريخية التي حصلت يومذاك، وتعطيل لما لها من أبعاد ودلالات!!

وحين ننظر إلى الواقعة من زاوية اعتقادنا بقدرة اللّه تعالى، وأن من سننه التي لا تتخلف: غيرته على بيته العتيق الذي هو أول بيت وضع للناس مباركاً وهدىً للعالمين ـ نجد أن اللّه تعالى ـ وهو العليم بما بيَّت أبرهة وأعوانه ـ قد غار على بيته الحرام، فباعد بينه وبين الأذى، وأهلك الطاغية أبرهة ومن كان معه على خط التنفيذ المقيت: بأمر خارق للعادة غير مألوف في دنيا الأسباب الأرضية والمسببات، ولكن اللّه تعالى الذي خلق الكون وأقام حركته على نظام في الأسباب والمسببات: هو القادر على تغيير الوجهة فيما رتّب ونظّم سبحانه!!

وكم كان لتعليل هذه الواقعة من خلال عقيدة التوحيد، وتفسيرها من هذه الزاوية المشرقة التي هي من الحق وإليه.. من أثر في تكوين القدرة الذاتية عند الجماعة المؤمنة، وتنمية فاعليتها في مواجهة طغيان قريش... ومشيئتُه ـ جلَّت قدرته ـ هي الأصل في هذا وغيره بلا ريب!

فاللّه الذي أرسل الطير الأبابيل تحمل تلك الحجارة القاتلة الممزقة لأبرهة وجيشه الذي لم يكن لقريش قبل بمواجهته: قادر على نصرة المؤمنين ـ إن هم نصروه ـ وتبديل قوتهم ضعفاً، وخوفهم أمناً..

وهذا لا يتنافى مع وجوب إعداد العدَّة التي تثمر إرهاب عدو اللّه وعدو المسلمين؛ فالمحور الذي لا يجوز تجاهله: أن اللّه قادر على نصر الأمة إن هي نصرته باتباع شرعه وإعداد العدّة المستطاعة. وما حصل في واقعة أبرهة الحبشي قبل ما يقارب خمسمائة وألف عام من أنصع الأدلة على هذا الذي نقول ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: ٤٠].

البناء.. وتفسير التاريخ
المنطلقات والحوافز
«٢»

لم تشهد الإنسانية دعوة أحكمت أسس البناء، ولم تهمل في منهج هذا الإحكام، جانباً في الحياة لحساب جانب آخر: كالذي شهدته في دعوة الإسلام؛ فالتكامل الذي صنعه العهد المكي والعهد المدني كلاهما: ينفي بشكل قاطع وجود أي لون من ألوان الافتراق بين العهدين.

ولئن كان العهد المدني الذي تنزلت فيه الآيات المدنية: هو الذي برز فيه بناء المجتمع، وحكمت كلَّ جوانب الحياة فيه شريعةُ الإسلام دونما استثناء، وظهرت الدولة ببنيتها المسلمة على الصعيدين الداخلي والخارجي.. إن العهد المكي - وهو يحمل طابع التمكين لعقيدة التوحيد، وإزالة العوائق النفسية والاجتماعية من طريقها: كان يتسم بإعطاء مؤشرات معبرة تُحكم العلاقة بين قاعدة البناء على العقيدة، وبين ما يراد أن يكون عليه الفرد والمجتمع في قادمات الأيام!

ويزيد الأمر وضوحاً: أنك لا تكاد تمر بسورة من السور المكية في الكتاب الكريم، مهما قلَّ عدد آيها، إلا وتشهد زمرة من هذه المؤشرات في البناء الثقافي والاقتصادي والاجتماعي، الأمر الذي جعل الطاقات والإمكانات تنمو مع نمو الطاقة الإيمانية في النفوس..

فكان المسلم المضطهد في عقيدته يكبر بإيمانه الصادق، وتكبرُ معه قدرته على وضع مبادئ الرسالة التي آمن بها، ويتحمل ما يتحمَّل من الأعباء في سبيلها: موضع التطبيق في المجتمع الذي يجب أن تحكمه الكلمة الطيبة «لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه» بكل دلالاتها وما تزخر به من أبعاد إيمانية وتشريعية وفكرية وسياسية!

والعهد قريب باصطحاب واحد من وجوه العطاء في واحدة من قصار السور المكية، هي سورة «الفيل» وهو وجه يصلنا بوجه آخر مثله في الإطار الذي يجري الإيماء إليه.

فلقد كانت منَّة عظيمة، تلك التي منَّ اللَّه بها على قريش وهي تشرف بجوار البيت الحرام وسدانته وحجابته وسقاية حجيجه: بأن حفظ هذا البيت من العادين المغيرين، فجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم جماعات من الطير، ترميهم بحجارة هيأتها القدرة الإلهية لإيقاعهم في شر هُلك، فما لبثوا أن صاروا كالعصف المأكول.

غير أن واحداً من المعالم القرآنية تشرق به هذه السورة المباركة، يهدي الأمة إلى جانب من جوانب الانتفاع بوقائع التاريخ وسلامة المنهج في تفسيرها، كيما تكون الفئة المؤمنة ـ وهي في موقع الذود عن حياض التوحيد وإنسانية الإنسان ـ على بينة من أمرها في تعليل الوقائع تعليلاً يكشف عن مناط بروزها في حركة الحياة التي تُظِل معاصريها، وفي إحكام الربط بين العقيدة التي يتساقط الشهداء تحت رايتها المتصلة بوحي السماء، وبين مسيرة التاريخ!

فحين يُذكر بناء الإنسان على المعتقدات الفطرية السليمة، وتنمية طاقاته في ضوء قيمها وأبعادها، والمبادئ القائمة عليها: يكون لزاماً أن يأخذ ذلك كله موقعه من قلبه وعقله وبواعث الحركة عنده، كيما يكون كدحه وتحركه: ضمن إطار فكري سليم، وعلى طريقة ذاتية في التفكير.. يفسِّر من خلالها أحداث التاريخ الذي هو سلسلة متكاملة الحلقات، ويحمل الناظم الذي ينتظم الوقائع ـ تباعدت أو تقاربت، مع إعطاء الفارق الزمني ـ إذا كان حاصلاً ـ حقه بمقدار، دون وكس ولا شطط؛ لأن العبرة بجوهر القضية ومنطلقها في الأصل؛ الأمر الذي يحدد موقع الماضي من الحاضر، وأثر ذلك في سير الوقائع.

وبذلك يكون بناء الإنسان وفق هذا المنهج الذي لا يغفل ما لا يجوز إغفاله، ولا ينمي جانباً على حساب جانب آخر، ويعنى أشد العناية بنقطة البدء.. يكون بناء الإنسان على هذه الشاكلة، عنوان الإحسان في صناعة التاريخ، وسلامة الوجهة في تفسيره يوم تقوم الحاجة إلى ذلك!!

فحوافز العمل، ومنطلقات الحركة والبناء: إنما تنمو دون تشوُّه، على وضع متناسب مع الحقيقة التي تبرز من خلال تفسير التاريخ ذي العلاقة بما يقع..

وشتان بين منطلقات تحكمها الضوابط المادية فحسب ـ دون مُثُلٍ رفيعة أو قيم ـ وبين منطلقات لا تنقطع عن السماء، وتحمل طابع التكامل الذي تمليه فطرة الإنسان وأهليته لحمل رسالة الخير لنفسه وللآخرين، إذ تحركه من أعماقه عقيدة التوحيد التي ترفع صاحبها من الوهدة، وتسمو به إلى مستوى التضحية والبذل في سبيل اللَّه، طلباً لمرضاته سبحانه.. ولا تسل عما يحدث ذلك من طيب الآثار وعظيم النتائج!

تفسير التاريخ والبناء.. وقصة أبرهة!

«٣»

بإلماحة عجلى وقفتنا الرحلة مع الكلمة القرآنية الهادية على طرف من مدلول الآيات التي دلَّت ـ فيما دلَّت ـ على ما أهلك اللَّه به أولئك الذين دبَّروا المكيدة لبيته الحرام زاده اللَّه تشريفاً ورفعة. وما تزال بوادر العطاء متوافرة على هذه الساحة من الهدي القرآني، وسبحان من أنزل الكتاب ولم يجعل له عوجاً، فلا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد.

ومما يزيد الأمر وضوحاً من الزاوية التي أردناها من شجون هذا العطاء، فيما ينبغي أن يكون عليه المنهج في تفسير وقائع التاريخ، لكيلا تفوت الحكمة، ويستبدل التيه بوضوح الرؤية: أن يقترن هذا الذي نومئ إليه بواقعة الإهلاك التي كان من الحكمة تأخير عرضها بالتفصيل الذي لا بد من إيجازه هنا.

وإنها لواقعة عظيمة مذكورة عند العرب ـ بعامة ـ وعند قريش ـ بخاصة ـ واستذكارها بالقدر المناسب، يسعف في القدرة على استنطاقها بموضوعية، في طريق الوصول إلى ما يعطيه هذا المعلم القويم، من تعليل لما حدث، تعليلاً يقفنا ـ في النهاية ـ على مكان النظرة الإسلامية إلى تاريخنا من مسيرة البناء التي كانت منظورة من أول يوم تحت راية الصراع بين الحق تعلنه دعوة الإسلام وتدعو إليه، وبين الباطل تكابر في مظاهرته الجاهلية بكل أوضارها وعوامل الهدم فيها.

ولقد شاء اللَّه الحكيم الخبير، أن تنمو في نفوس المقبلين على الدعوة، في مواجهة العناد والأذى: مشاعر الصدق في صلتهم به سبحانه، فكان لهم من خبر الطاغية أبرهة وجيشه، وما كان من إهلاك اللَّه لهم على الصورة التي أعلنها القرآن الكريم: حافز جديد على متابعة الطريق الشائكة، والاستمرار في نصرة الحق الذي نزل به الكتاب، مهما كلفهم ذلك من ثمن!

وأبرهة هذا قد حكم اليمن وكانت تابعة للحبشة يومذاك، بعد أن خلا له الجو بمقتل منافس له. وأقره النجاشي على عمله!

وبنى أبرهة ـ بدافع ديني بالغ الاعوجاج ـ كنيسة هائلة، أعلى فناءها، وزخرف أرجاءها، وعزم أن يصرف حج العرب إليها، كما يُحج إلى الكعبة المشرفة بمكة، ونادى في مملكته بذلك.

والغرض السياسي الهابط، من وراء الغرض الديني الحاقد في هذا المبتغى: واضح في إرادة استقطاب حجيج العرب إلى كنيسته، والفوز بما تحظى به قريش من المكانة الدينية والسياسية والثقافية في ظل البيت الحرام.

وكرهت قريش ذلك شديد الكراهة، وغضبت العدنانية والقحطانية، حتى قيل: إن بعض الرجال الناقمين، تمكنوا من دخول الكنيسة وإحداث أذىً مرموق فيها، الأمر الذي زاد من غضب الطاغية أبرهة الأشرم وحقده، فما كان منه إلا أن أقسم ليسيرن إلى بيت مكة وليخربنه حجراً حجراً!!

لقد أقسم هذا القسم، وهو غارق في بحران الوهم والغرور الذي زيّن له أن القضية قضية أرضية مقطوعة الصلة بالسماء، وما درى أن البيت الذي أقسم على هدمه وإزالته من الوجود: هو بيت اللّه القادر القاهر يسمع ويرى ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء..

وقد أنفذ ما بيَّت من الشر والكيد، بالمسير إلى مكة المكرمة، بجيش عرمرم، مستصحباً عدداً من الفيلة المدَرَّبة.

وفي الطريق أسَرَ وقَتَلَ، واستصحب بعض من أسَرَ من الزعماء، ومرَّ بثقيف فداهنته، خوفاً على وثنها اللات أن يهدم، وأرسلت معه «أبا رغال» دليلاً على الطريق.

وكان لا بد من التفاوض مع قريش، واجتمع حناطة الحميري رسولُ أبرهة إلى هذا التفاوض بعبد المطَّلب جدِّ نبينا عليه الصلاة والسلام، وقال له: إن أبرهة لم يجئ لقتالكم إلا أن تصدُّوه عن البيت! فقال له عبد المطلب: واللّه ما نريد حربه،

وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت اللَّه الحرام، وبيت خليله إبراهيم؛ فإن يمنعْه منه: فهو بيته وحرمه، وإن يخلِّ بينه وبينه، فواللَّه ما عندنا دفعٌ عنه. فقال له حناطة: فاذهب معي إليه...

وبين يدي استكمال هذا الخبر فيما يأتي من القول إن شاء اللَّه، أود الإشارة إلى العبء الجسيم الذي حمله الرعيل الأول بنفوس رضية، وقلوب مبتغاها ـ في نصرة الحق ـ مرضاة اللَّه عز وجل.. في بناء الكيان القوي المتميز لهذه الأمة، وصنع تاريخها الحضاري المجيد.. يوم أعادوا الحق إلى نصابه ـ على كل صعيد ـ فحرروا النفوس من رجس الأوثان، فانطلقت تصلح ما فسد، وتبني بسواعد الإيمان الرجال مجتمع الفضيلة والخير نواة الدولة الإسلامية نصيرة الحق والإنسان!

وكأن كلمة عبد المطلب التي رأينا، وما سيطالعنا ـ فيما بعد ـ من صنيعه: واحد من الالتماعات الأخيرة، فيما كان عليه العرب من الحنيفية ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام!

ألا ما أشبه الليلة بالبارحة.. أجل ما أشد الشبه بينهما على صعيد تنقية الطريق من الشوائب، تمهيداً للبذر الطيب الذي يؤتي أكله في نفوس من أراد اللَّه إسعادهم بأن يكونوا جنده المكرمين على طريق تبدأ بالإيمان والعمل في اتقاء اللَّه في كل صغيرة وكبيرة... وتنتهي بجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للأوفياء بعقودهم مع اللَّه، صابرين على لأواء الطريق، لا يخافون لومة لائم، همُّهم نصرة الدين، والذود عن حياضه مجاهدين صابرين.

واقعة أبرهة.. والبناء الفكري

« ٤ »

في حديث موصول بالكلام على موقف عبد المطلب ساعة حواره مع أبرهة بعد أن استجاب لدعوة رسوله بالذهاب إليه: تجدر الإشارة إلى أن عبد المطلب كان رجلاً جسيماً، حسن المنظر، تعلوه المهابة، فأجلَّه أبرهة، ونزل عن سريره، وجلس معه على البساط، ثم عرف من ترجمانه أن عبد المطلب يريد منه أن يرد إليه مائتي بعير أصابها له، ودهش القائد المتغطرس لهذا، وقال لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم زهدت فيك حين كلمتني؛ أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك وأجدادك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟!

فقال له عبد المطلب ـ بنفس مطمئنة كل الاطمئنان إلى ما عند اللَّه، هازئة بجبروت هذا الطاغية ـ: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه.

والحق أن كلمة «سيمنعه» لا بد أن تستوقف الناقد المتبصر، لينظر كم هي عميقة الدلالة في موضوعها والخطر محدق بالكعبة وما حولها!

ولكن أبرهة ـ وقد فكَّر وقدر فقتل كيف قدَّر ـ تمادى في غيه وقال: ما كان ليمتنع مني!!

قال عبد المطلب: أنت وذاك. ويروي أصحاب السير ونفر من المفسرين أن أبرهة ردَّ عليه إبله.

ورجع الرجل الأول الشجاع إلى قريش، فأمرهم بالخروج من مكة والتحصن في رؤوس الجبال، خوفاً عليهم من معرة الجيش الغازي الذي غشيه الحقد والرغبة في التدمير.

وتوكيداً لما جابه به أبرهة ساعة الحوار الحاسم الذي جرى بينهما: قام فأخذ بحلقة باب الكعبة ـ كما تذكر الأخبار ـ وقام معه نفر من قريش يدعون رب هذه البنية ويستنصرونه على أبرهة وجنده.

وقال عبد المطلب ـ وكله أمل في أن يأخذ اللَّه الطاغية وجيشه ـ:

لا هـــمَّ إن المـــرء يمـــنع رحله فـامنع رحـالك
لا يغلبنَّ صليبُهم ومحالهم أبداً مِحالَك

المِحال: القوة أو الأخذ.

وفي الصباح: تهيأ أبرهة لدخول مكة، وهيأ الفيل العظيم الذي كان يعده لهذا اليوم، وجعله في المقدمة، وعبَّأ الجيش التعبئة المناسبة..

ولكن حدث بعد هذا كله ما لم يكن في الحسبان؛ ذلك أن الفيل حين وجهوه شطر أم القرى، برك بعناد ولم يتزحزح. وجعلوا لا يصرفونه إلى جهة من الجهات إلا ذهب فيها، فإذا وجهوه إلى الحرم ربض وصاح.. وهكذا وجهوه إلى اليمن، فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام، ففعل مثل ذلك، كما وجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك أيضاً.

حتى إذا وجهوه إلى مكة أبى عليهم كل الإباء، وانتزع نفسه منهم بأقصى ما يستطيع!

وضاقت بأبرهة وجنده الحيلة، واشتد عليهم الكرب، وحاصرتهم المفاجأة المذهلة من كل مكان!

وبينما هم على هذه الحال من الضيق والشدة الشادَّة: أرسل اللَّه عليهم طيراً أبابيل ـ قطعاً قطعاً وجماعات جماعات ـ ومع كل طائر ثلاثة أحجار ـ فيها القوة والصلابة ـ من سجيل، وقد حملتها بمناقيرها وأظافيرها، وشرعت ترميهم بها، فما يقع حجر على رأس رجل إلا هلك ولو بعد حين. ذلكم قول اللَّه جلت قدرته: س﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾[الفيل: ٣-٥].

وهكذا أصبح الجيش المتمِّر المتغطرس ـ بما فيه ومن فيه ـ كالتبن المسحوق بأرجل البهائم!! وانظر إلى هذه الصورة بعد أن تحملق بسابقتها!! وقل: سبحان من يمهل ولا يهمل وهو على كل شيء قدير!!

لقد أهلك اللَّه جند الباطل والتعصب المنحرف الذميم ـ بما بيتوا وعزموا ـ على هدم بيته العتيق، وجعل كيدهم في تضليل، فردَّهم بغيظهم لم ينالوا خيراً، وباؤوا على رؤوس الأشهاد بالخزي والعار والشنار، ولم يرجع منهم مخبر. إلا أن يكون جريحاً يصارعه الموت.

وانصدع صدر أبرهة عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء مسودّ الوجه خائباً تغشاه الحسرة، وأخبر القوم ـ وهو في أسوأ حالاته ـ بما جرى، ثم مات شر ميتة جزاء ما صنع، وبات هو وجيشه عبرة من عبر التاريخ!

ولنا عودة ـ إن شاء اللَّه ـ إلى رحلة عجلى لا يتسع لأكثر منها المقام، مع الذي توحي به الواقعة على صعيد البناء الفكري، حيث ينمي الإسلام عمق النظرة إلى الواقعة التاريخية، وسلامة استنطاقها، كيما يكون تفسيرها ـ وهي على ساحة تتصل بالعقيدة ـ على تلاؤم مع عطاء هذه العقيدة واتساق مع حقيقة أنه لا راد لقضاء اللَّه، وأنه ـ سبحانه ـ يقدِّر ما يشاء ويفعل ما يريد، وهو الحكيم الخبير.

واقعة أبرهة.. والبناء الفكري

«٥»

لا يخفى أن الأمر عندما يتعلق بالثقافة والبناء الفكري، في حرص منهجي على تنمية قدرة الفرد ـ ومن ورائه الجماعة ـ على الحركة في إطار القاعدة الفكرية التي يضعها هذا البناء القائم على أصول ثابتة مكينة.. يكون من الواجب ـ كما دلت على ذلك المعالم القرآنية ـ أن يكون تتبع كليات القضايا، وجزئياتها بحسبان، كيما يتبيَّن مقدار انسجامها مع البنية التي يوجه إليها منهج التفكير، وإلى أي حد يجري التوافق بينها وبين تفسير الوقائع التاريخية..

ذلك بأن الانحراف عن ذلك: لا يعدو أن يكون صورة من صور التخالف بين المعتقد والفكر، وبين طبيعة الحكم على أحداث التاريخ حكماً تتحقق معه العبرة، ولا يكون ناشزاً عن المنطلقات الأولى التي تسهم في صناعة التاريخ.

وهذا ما لا يرتضيه الإسلام لمجتمع العقيدة الذي يتحرك في ظل الرسالة الإسلامية التي حمَّلت الفرد والجماعة من أول يوم: أمانة العمل على منهج معيَّن في التفكير، ينتظم ـ فيما ينتظم ـ أواصر الارتباط بين الماضي والحاضر والتنهيج للمستقبل في إطار الإيمان بقضاء اللَّه وقدره، وهو إيمان لا ينافي الأخذ بالأسباب كما وجَّه إلى ذلك الدين القويم.

وفي واقعة أبرهة مع عبد المطلب، وما آلت إليه الأمور بعد ذلك ـ كما أسلفنا من قبل ـ مما لم يكن في حسبان المغيرين المعتدين: يشهد الناظر المتأمل، أن ما حدث للطاغية وجيشه: كان بقضاء اللَّه وقدره بلا ريب، وأن قدرة اللَّه القاهر فوق عباده قد تدخلت، فأهلكت من أرادوا بالبيت الحرام الدمار والسوء.

وأنت واجد أنه لم تنقص أبرهة الحركة النفسية الحاقدة الناقمة، التي تدفع الظالم إلى البطش والتدمير، كما لم ينقصه شيء من الإعداد الظاهر لإنفاذ ما عزم عليه من إزالة الكعبة ـ لو قدر أخزاه اللّه ـ من الوجود.

وفي المقابل: استطاع بسرعة أن يقضي على كل مقاومة لقيها في الطريق، فقتل وأسر دون عائق يذكر. ومما زاده عتواً واستكباراً، وإصراراً على ما ائتمر به، وأعدَّ ما أعدَّ لتحقيقه: أنه لم يلق أية مقاومة من أهل الحرم أنفسهم يحسب لها حساب!

ففي حمى الحرم المعظم نفسه، لم يكن لدى قريش قوة تذكر في مقابل جيش أبرهة، وكل ما صنعته ـ كما أشرنا فيما سبق ـ اعتصام برؤوس الجبال، لكيلا تنالها معرَّة الجيش الغازي..

وإذن لم يكن على طريق هذا الضال المعتدي ـ في ظاهر الأمر ـ أي عائق يعوق وصوله إلى الغاية التخريبية التي كان يطمح إليها، وبخاصة بعد الذي جرى للكنيسة في صنعاء!!

غير أن خيطاً واحداً من خيوط الرجاء نلمحه في الحوار الذي حصل بين عبد المطلب وأبرهة، حين قال عبد المطلب بلغة الواثق المطمئن ـ وقد ضاقت عليه السبل ـ: (إن للبيت رباً يحميه) وحين لم يعبأ بتهديد أبرهة ووعيده، بل كان حديثه ـ على هدوئه وقلة كلماته ـ يحمل في باطنه تهديداً لعدو اللّه وعدو بيته، هو انعكاس لإيمانه بقدرة اللّه، وأنه ـ جل وعلا ـ قادر على رد كيد أبرهة في نحره.

وقد تجلى ذلك بقوله حين أمسك بحلقة باب الكعبة:

لا يغلبنَّ صليبهم ومِحالهم أبداً مِحالَك

ولا ريب في أن اللّه يمهل ولا يهمل، فهو ـ سبحانه ـ شديد المِحال، آخذ من ظلم بما هو جزاء ظلمه واستكباره وعتوِّه!!

وماذا علينا بعد هذا في ضوء المتابعة الدقيقة للأحداث: أن نذكر مرةً أخرى: ما يلاحظ من حقيقة أن الأسباب الأرضية كانت كلها متوافرة لأبرهة من أجل تنفيذ وعيده الذي أوعد...

ولكن الذي وقع ـ في خاتمة المطاف ـ كان على العكس من ذلك جملة وتفصيلاً...

صحيح أنه كان يملك العدة والعدد، واستطاع سحق المقاومة ـ على ضآلتها ـ في الطريق إلى مكة، وصحيح أن قريشاً لم تبد أية مقاومة لأنها لا تملك القدرة على أن تقاوم! ولكن قدرة اللَّه كانت للغزاة الحاقدين بالمرصاد؛ وكذلك أخذُ ربك إذا أخذ من يريدون ببيته ومعقلِ توحيده بالسوء، أهلك القوم بجند من جنده ـ وما يعلم جنود ربك إلا هو ـ وأهلكهم بطير أبابيل رمتهم بحجارة من سجيل... بعد أن حصل من عظيم الفيلة ومقدَّمهم ما حصل!!

ولك أن تقارن بين الإنذار والزمجرة والوعيد بهدم الكعبة المشرَّفة استعلاءً وحقداً واستكباراً في الأرض، ومشهد الجيش الذي مزقته أحجار سجيل بعد أن شاء اللَّه للفيل العظيم أن يتأبى على التوجه شطر مكة والبيت المعظم، ثم صورة أبرهة يتلوى مما عصف به من الذلة والألم والحسرة، حيث مات سبعين ميتة قبل أن يوافيه الأجل في صنعاء.

وصلى اللَّه على رسولنا المصطفى يوم قال ـ كما روى البخاري وغيره ـ في شأن ناقته القصواء ـ وقد تأبت على المسلمين التوجه شطر مكة عام الحديبية وقال بعضهم: خلأت القصواء ـ يعني حرنت ـ: «**ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل**».

واقعة أبرهة.. والبناء الفكري للمسلم

«٦»

هكذا كان من عطاء المعلم القرآني الذي سبق أن تابعنا في ضوئه الوقائع التاريخية لقصة أبرهة الأشرم، فيما أنذر وتوعَّد، وأرغى وأزبد، وفيما باء به من الهلاك والخسران المبين.. أن المؤمن حين يواجه وقائع التاريخ وأحداثه، ويحاول أن يجد لها التعليل المناسب فيما كان من مقدمات، وفيما حصل من نتائج.. وعلى أي شكل كان الارتباط بين النتائج والمقدمات، وفي أي إطار ارتسمت الصورة التي تبدت من خلالها علاقة المسببات بالأسباب، وأبعاد هذه الصورة..

هذا المؤمن حين يفعل ذلك بذاتية الانتماء الصادق إلى رسالته المشرقة بوحي السماء! لا يصح أن يكون تناوله لتعليل الوقائع وتفسيرها، تناولاً يعوزه حضور العقيدة، والإيمان بقضاء اللَّه وقدره، وأنه ـ تبارك وتعالى ـ يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، لا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه، وهو ـ جل شأنه ـ خالق الأسباب والمسببات!

وغني عن البيان: أن كل المقدمات كانت تدل ـ في ظاهر الحال ـ على أن الغازي المعتدي واصل إلى ما أراده لا محالة، ولكن سنةَ اللَّه ماضيةٌ في عاقبة من بغى وطغى، كما أن غيرته ـ سبحانه ـ على بيته ـ وهو القاهر فوق عباده ـ لم يكن بدٌّ من أن تعمل عملها في أصحاب الفيل!!

من هنا يمكن القول بأن السورة المباركة المعنية بهذا الحديث ـ وهي «سورة الفيل» ـ كشفت بوضوح عن أن ما حصل للطاغية الأشرم: كان بفعل اللَّه وقدرته التي لا تجارى، وأن ذلك كان متسقاً كل الاتساق مع سنته الماضية في الكون؛ أخذاً للظالمين بما يصنعون، وإهلاكهم من حيث لا يحتسبون.

وكما كشفت بوضوح عن ذلك: علمتنا من أين نبدأ تفسير التاريخ، وما هي وسيلتنا لحسن تعليل الوقائع والأحداث.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى في مفتتح السورة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾[الفيل: ١] إذ الرؤية المقصودة هنا: هي رؤية العلم والوعي والتدبر.. لأن النبي ﷺ ولداته من جيله الزمني، لم يروا رؤية العين واقعة أصحاب الفيل، ولكنهم علموها من طريق التواتر.

غير أن الجيل السابق، جيلَ عبد المطلب وعصرييه، قد شاهدوها بأم أعينهم، وعاشوا مقدماتها.. أجل شاهدوها، ولم ينسوا أنهم صعدوا إلى الجبال، وخلّوا بين الغزاة وبين البيت لأنهم كانوا ـ من حيث الأسباب الأرضية ـ أعجز من أن يدفعوا الأذى أو يقاوموا أصحابه.. ولكن تلهفهم إلى ما يمكن أن يحصل: كان شديداً جدَّ شديد.

وقد رأوا ـ وهم على هذه الحال من اللَّهفة والترقب ـ كيف أن الطير الأبابيل جاءت تحمل الموت الزؤام لأبرهة بل رأوا ما صنعته الحجارة التي تحملها هذه الجماعات من الطيور.. وهو أمر خارق للعادة بالتأكيد!

وإذا كان الأمر كذلك: فليعمل العقل عمله، ولتنزع القدرة الفكرية إلى سلامة استنتاج الحقيقة، وأن ما حصل من الأمر الخارق، لم يكن بأسباب أرضية، عمل لها وأعدّها فريق من البشر، ولكن وراءه قدرةً خارقة هي قدرة اللَّه رب البيت المستهدف بالتدمير والخراب، وكلمةً بالغة هي حكمته جل وعلا.

وكل ذلك يدل ـ صورة هي حق اليقين ـ على أن الكون بكلياته وجزئياته ـ مهما دقت أو جلَّت ـ على نظام رباني لا ينفك عن القضاء والقدر، وأن اللَّه ـ وهو موجد هذا الكون ومسيِّره على ذاك النظام الذي ارتضاه بإرادته وحكمته ـ لا يعزب عن علمه ذرة في الأرض ولا في السماء، وهو صاحب السلطان والأخذ الأليم الشديد، وكل شيء عنده بمقدار!!

إنا ـ ونحن نتطلع إلى المستقبل المزدان بالخير والتمكين ـ: تصحبنا شكوى العنت ورواسب التأثر بالفكر المجافي للرسالة التي يفترض أن نتحرك في ظلها، ومن ذلك ما يؤمن به البعض من سلامة التفسير المادي للتاريخ، أو فهم المنهج التاريخي فهماً هو أبعد ما يكون عن نشدان الحق المرتبط بوحي السماء، ومفهوم أئمة الهوى من نصوص هذا الوحي..

إنا ـ ونحن نتطلع إلى هذا المستقبل ـ: نرجي أن نضع أقدامنا على الطريق بثقة وطمأنينة؛ الأمر الذي يوجب تنقية هذه الطريق من الشوائب التي تعوق خطا الجيل المعدِّ للتغيير إلى ما هو الأفضل، وتذليل العقبات التي خلَّفها الغزو الفكري وتقليد الأقوياء ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون..

ومن البداهة بمكان: وجوب أن يصحب ذلك بناء على العقيدة التي تسلمنا إلى الحقيقة بدليلها، وتنمي سلامة التعليل للوقائع، وإحكام الربط بين النتائج والمقدمات، وسبحان من يوفق من شاء لما شاء، والعاقبة للمتقين.

عبد المطلب.. والجواب عن تساؤل!

«٧»

جواباً عن تساؤل مقبول حول موقف عبد المطلب من أبرهة وجيشه من عدم المقاومة، والاعتصام برؤوس الجبال طلباً للنجاء ومقدار انعكاس ذلك على ما يكون من خطة المسلم في مواجهة التحديات.. أود أن أنوه هنا، وأعيد التذكير بما نطقت به الوقائع من فحوى تصرف عبد المطلب من أنه كان لا يملك من القوة ما يواجه به جيش أبرهة الذي تؤكد الروايات ضخامة عدده وعدته يومذاك، ولذلك وجد الرجل الأول في بني هاشم أن محالاً عليهم أن يزودوا عن الكعبة ويدفعوا عنها فليتركوا ذلك مكرهين لرب الكعبة سبحانه: فربُّ العباد قادر على أن يمنع بيته من أذى المغيرين، بل أن يهلكهم، وكان ذلك ـ والحمد لله ـ وجعلهم كعصف مأكول.

هذه واحدة، والثانية: أنه من الممكن القول بأن عبد المطلب كان على يقين لا يتزعزع من أن اللَّه مانع بيته المحرَّم من العدوان مهما كانت قوة من أراد به السوء.

لذا فإن من العبث محاولة الدخول مع الطاغية الغازي في معركة غير متكافئة على الإطلاق. وما قاله لأبرهة المغرور، المتغطرس في الحوار الذي دار بينهما، وما أنشد من الشعر عندما أمسك بحلقة باب الكعبة؛ دليل واضح على ما نقول.

والتجاءُ عبد المطلب إلى اللَّه بصدق في هذه الشدة الشادة، والخطرِ المحدق.. التجاءٌ إلى القوة التي لا تقهر، واعتماد كليٌّ على رب الأسباب والمسببات سبحانه!

وبهذا يتبين أن الأمر لم يكن إهمالاً أو تهاوناً من عبد المطلب ـ مع قدرته على المدافعة أو المناوشة على الأقل ـ، بل كان أخذاً بالسبيل الأقوم الذي لا سبيل غيره عندما لا يملك العبد شيئاً من الأسباب الأرضية، أو يملك ما لا يعبأ به فيها،

خصوصاً وأن ما كانت عليه قريش ليس كياناً تحميه دولة لها نظامها وجيشها، ولو كان قليل العدد والعدّة، ولكن الأمر متروك لحصافة الرجل المتميز فيهم، ومن يمكن أن يعاونوه في المشورة والرأي! ومن هنا كان من حق عبد المطلب تقدير موقفه الذي كان سداه ولحمته الاعتماد على اللّه والتوكل عليه، لما يحمل صدره من اليقين بأن اللّه لا بد مانع بيته.

ولكن هذا كلّه موضعُه وجوب التنبه إلى أن المعلم القرآني في السورة يهدي إلى أن تكون حقيقة وجود اللّه وقدرته وعلمه ماثلة في قلوب المسلمين وعقولهم عندما يريدون تفسير التاريخ وتعليل وقائعه، لا أن يهملوا أسباب القوة، والعوامل التي تبني الفرد والمجتمع على خير القواعد وأكرم الأسس، فهذه قضية وتلك قضية أخرى. صحيح كل الصحة أن اللّه تعالى أهلك ـ بقدرته ـ أبرهة وجيشه وأحبط كيدهم، وصحيح أيضاً أنه تعالى هو الذي شاء وقف الأمة على سننه التي لا تتخلف في أن الهلاك لمن كفر وأساء وظلم، وأن العاقبة الحسنى لمن آمن وعمل الصالحات ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾[الكهف: ٨٧-٨٨] وقد أخذ من أرادوا بالبيت الحرام سوءاً بجريرة ما صنعوا.

كما أن من الغفلة بمكان أن تختلط الأوراق، فتخالف أمتنا عن أمر اللّه بإعداد القوة، والجهاد حق الجهاد في سبيله والدعوة إلى الأخذ بأسباب الهداية والتمكين، وتجنب كل ما من شأنه الانزلاق في مهاوي الضلالة والضعف. نقرأ في ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾[غافر: ٢١-٢٢] وقوله جل وعلا: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا

عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾[الحج: ٧٨] ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾[الأنفال: ٦٠] ناهيك عن البيان القولي والعملي لذلك في هدي النبي عليه الصلاة والسلام.

أجل إن اللَّه الذي شرع للأمة الجهاد، وأمر أمراً جازماً بإعداد القوة التي ترهب عدو اللَّه وعدوها: هو الذي دلهم على أن من سننه أن ينصر أولياءه إن هم نصروه وأن يخذل أعداءه ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: ٤٠] وقد تهدد المشركين بذلك فقال عز ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾[محمد: ١٠] وجاء التعليل بعد ذلك بقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾[محمد: ١١].

إنها حوافز العقيدة التي تنبعث من أعمال النفس فتنعكس على ميادين الحياة بناءً ونماءً.